تفسير ابن كثير

يقول تعالى توبيخا لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : { ثم قست قلوبكم من بعد ذلك } كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبدا ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون } قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط فقيل له : من قتلك ؟ قال : بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله : والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الايات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريا ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال : { تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا } وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : إنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء : أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله } أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق { وما الله بغافل عما تعملون } وقال أبو علي الجياني في تفسيره { وإن منها لما يهبط من خشية الله } هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام ابن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحيى بن أبي طالب يعني ويحيى بن يعقوب في قوله تعالى : { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار } قال : كثرة البكاء { وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء } قال : قليل البكاء { وإن منها لما يهبط من خشية الله } قال : بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله : { يريد أن ينقض } قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : { إنا عرضنا الأمانة على

السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها } وقال : { تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن } الاية وقال : { والنجم والشجر يسجدان } { أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله } الاية { قالتا أتينا طائعين } { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل } الاية : { وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله } الاية وفي الصحيح [هذا جبل يحبنا ونحبه] وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم [إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الان] وفي صفة الحجر الأسود : إنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه وحكى القرطبي قولا أنها للتخيير أي مثلا لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين وكذا حكاه الرازي في تفسيره وزاد قولا آخر : إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل : أكلت خبزا أو تمرا وهو يعلم أيهما أكل وقال آخر : إنها بمعنى قول القائل : كل حلوا أو حامضا أي لا يخرج عن واحد منهما أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم .

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معني قوله تعالى : { فهي كالحجارة أو أشد قسوة } بعد الاجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم : أو : ههنا بمعنى الواو تقديره : فهي كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى : { ولا تطع منهم آثما أو كفورا } { عذرا أو نذرا } وكما قال النابغة الذبياني : .

(قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد) .

تريد ونصفه قاله ابن جرير وقال جرير بن عطية : .

(نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر) .

قال ابن جرير : يعني نال الخلافة وكانت له قدرا وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره : فهي كالحجارة بل أشد قسوة وكقوله : { إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية } { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون } { فكان قاب قوسين أو أدنى } وقال آخرون : معنى ذلك : { فهي كالحجارة أو أشد قسوة } عندكم حكاه ابن جرير وقال آخرون : المراد بذلك الإبهام على المخاطب كما قال أبو الأسود : .

(أحب محمدا حبا شديدا وعباسا وحمزة والوصيا) .

(فإن يك حبهم رشدا أصبه وليس بمخطئ إن كان غيا) .

وقال ابن جرير : قالوا : ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكا في أن حب من سمى رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال : وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت ؟ فقال : كلا والله ثم انتزع بقول الله تعالى : { وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين } فقال : أو كان شاكا من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم : معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة وإما أن تكون

أشد منها في القسوة قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيها بقوله تعالى : { مثلهم كمثل الذي استوقد نارا } مع قوله : { أو كصيب من السماء } وكقوله : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة } مع قوله : { أو كظلمات في بحر لجي } الاية أي إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا وا أعلم وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد ا بن أبي الثلج حدثنا علي بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد ا بن حاطب عن عبد ا بن دينار عن ابن عمر : أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [لا تكثروا الكلام بغير ذكر ا فإن كثرة الكلام بغير ذكر ا قسوة القلب وإن أبعد الناس من ا : القلب القاسي] رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد ا بن أبي الثلج صاحب الإمام أحمد به ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد ا بن الحارث بن حاطب به وقال : غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم وروى البزار عن أنس مرفوعا [أربع من الشقاء : جمود العين وقساوة القلب طول الأمل والحرص على الدنيا]